جامع البيان عن تأويل آي القرآن

تفسير الطبري

تأليف

الأمام الكبير والمحدث الشهير من اطبقت

الأمة على تقدمه في التفاسير

الامام ابي جعفر محمد بن جرير الطبري

الجزء الثاني

ضبط وتعليق

محمود شاكر الحرستاني

تصحيح

علي عاشور

دار احياء التراث العربي

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

(٢) سورة البقرة مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول في تاويل قوله تعالى:

﴿۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهاءُ﴾ سيقول الجهال من الناس، وهم اليهود وأهل النفاق. وإنما سماهم الله عزّ وجلّ سفهاء لأنهم سَفِهوا الحقّ، فتجاهلت أحبارُ اليهود، وتعاظمت جهالُهم وأهلُ الغباء منهم عن اتباع محمد ﷺ، إذ كان من العرب ولم يكن من بني إسرائيل، وتحير المنافقون فتبلّدوا.

وبما قلنا في السفهاء أنهم هم اليهود وأهل النفاق، قال أهل التأويل. ذكر من قال هم اليهود:

حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ ما وَلّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِم﴾ قال: اليهود تقوله حين تركِ بيتِ المقدس.

حدثني المثنى، قال: ثنا أبو حذيفة، قال: ثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، مثله.

حدثت عن أحمد بن يونس، عن زهير، عن أبي إسحاق، عن البراء: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ﴾ قال: اليهود.

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ﴾ قال: اليهود.

حدثني المثنى، قال: ثنا الحماني، قال: ثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن البراء في قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ﴾ قال: أهل الكتاب.

وقد يحتمل أن يكون قارئه كذلك وجهه إلى أن ذلك جمع ظل، لأن الظلة والظل قد يجمعان جميعاً ظلالاً.

والصواب من القراءة في ذلك عندي ﴿هَلْ يَنظُرُون إلاَّ أنْ يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ﴾ لخبر روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ مِنَ الغَمامِ طاقاتٍ يَأتي اللّه فِيها مَخْفوفاً» فدل بقوله طاقات على أنها ظلل لا ظلال، لأن واحد الظلل ظلّة، وهي الطاق. واتباعاً لخط المصحف. وكذلك الواجب في كل ما اتفقت معانيه واختلفت في قراءته القراء ولم يكن على إحدى القراءتين دلالة تنفصل بها من الأخرى غير اختلاف خط المصحف، فالذي ينبغي أن تؤثر قراءته منها ما وافق رسم المصحف.

وأما الذي هو أولى القراءتين في: ﴿وَالمَلائِكَةُ﴾ فالصواب بالرفع عطفاً بها على اسم الله تبارك وتعالى على معنى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وإلا أن تأتيهم الملائكة على ما رُوي عن أبيّ بن كعب، لأن الله جل ثناؤه قد أخبر في غير موضع من كتابه أن الملائكة تأتيهم، فقال جل ثناؤه: ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وقال: ﴿هَلْ يَنظُرونَ إلاَّ أنْ تأتِيهُمُ المَلائِكَةُ أوْ يَأتي رَبُّكَ أوْ يَأتي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ﴾. فإن أشكل على امرىء قول الله جل ثناؤه: ﴿وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فظنّ أنه مخالف معناه معنى قوله ﴿هَلْ يَنظُرونَ إلاَّ أنْ يَأتِيهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ وَالمَلائِكَةُ﴾ إذ كان قوله «والملائكة» في هذه الآية بلفظ جمع، وفي الأخرى بلفظ الواحد. فإن ذلك خطأ من الظانّ، وذلك أن الملَك في قوله: ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ﴾ بمعنى الجميع، ومعنى الملائكة، والعرب تذكر الواحد بمعنى الجميع، فتقول: فلان كثير الدرهم والدينار، يراد به الدراهم والدنانير، وهلك البعير والشاة بمعنى جماعة الإبل والشاء، فكذلك قوله: ﴿وَالمَلَكُ﴾ بمعنى الملائكة.

ثم اختلف أهل التأويل في قوله: ﴿ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ﴾ وهل هو من صلة فعل الله جل ثناؤه، أو من صلة فعل الملائكة، ومن الذي يأتي فيها؟ فقال بعضهم: هو من صلة فعل الله، ومعناه: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وأن تأتيهم الملائكة.

ذكر من قال ذلك:

حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قول الله عزّ وجل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ أنْ يَأتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ﴾ قال: هو غير السحاب لم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا، وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة.

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلاّ أنْ يَأتِيَهُمُ اللّهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ﴾ قال: يأتيهم الله وتأتيهم الملائكة عند الموت.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، قال: قال عكرمة في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ أنْ يأتِيَهُمُ اللّهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ﴾ قال: طاقات من الغمام والملائكة حوله. قال ابن جريج وقال غيره: والملائكة بالموت.

وقول عكرمة هذا وإن كان موافقاً قول من قال: إن قوله في ظلل من الغمام من صلة فعل الرب تبارك وتعالى الذي قد تقدم ذكرناه، فإنه له مخالف في صفة الملائكة وذلك أن الواجب من القراءة على تأويل قول عكرمة هذا في الملائكة الخفض، لأنه تأول الآية: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام وفي الملائكة، لأنه زعم أن الله تعالى يأتي في ظلل من الغمام والملائكة حوله. هذا إن كان وجه قوله والملائكة حوله، إلى أنهم حول الغمام، وجعل الهاء في حوله من ذكر الغمام وإن كان وجه قوله: والملائكة حوله إلى أنهم حول الرب تبارك وتعالى، وجعل الهاء في حوله من ذكر الرب عز جل، فقوله نظير قول الآخرين الذين قد ذكرنا قولهم غير مخالفهم في ذلك.

وقال آخرون: بل قوله ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ﴾ من صلة فعل الملائكة، وإنما تأتي الملائكة فيها، وأما الربّ تعالى ذكره فإنه يأتي فيما شاء.

ذكر من قال ذلك:

حدثت عن عمار بن الحسن، قال: ثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ أنْ يأتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ وَالملائِكَةُ﴾... الآية، قال: ذلك يوم القيامة، تأتيهم الملائكة في ظلل من الغمام. قال: الملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والربّ تعالى يجيء فيما شاء.

وأولى التأويلين بالصواب في ذلك تأويل من وجه قوله: ﴿في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ﴾ إلى أنه من صلة فعل الربّ عز وجل، وأن معناه: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغَمام، وتأتيهم الملائكة. لما:

حدثنا به محمد بن حميد، قال: ثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج، عن زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ مِن الغَمامِ طاقاتٍ يأتي اللّهُ فِيها مَخْفُوفاً»وذلك قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ أنْ يأتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ والمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأمْرُ﴾.

وأما معنى قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ فإنه ما ينظرون، وقد بينا ذلك بعلله فيما مضى من كتابنا هذا قبل.

ثم اختلف في صفة إتيان الرب تبارك وتعالى الذي ذكره في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ فقال بعضهم: لا صفة لذلك غير الذي وصف به نفسه عزّ وجل من المجيء والإتيان والنزول، وغير جائز تكلف القول في ذلك لأحد إلا بخبر من الله جل جلاله، أو من رسول مرسل. فأما القول في صفات الله وأسمائه، فغير جائز لأحد من جهة الاستخراج إلا بما ذكرنا.

وقال آخرون: إتيانه عز وجل نظير ما يعرف من مجيء الجائي من موضع إلى موضع وانتقاله من مكان إلى مكان.

وقال آخرون: معنى قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني به: هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله، كما يقال: قد خشينا أن يأتينا بنو أمية، يراد به حكمهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: هل ينظرون إلا أن يأتيهم ثوابه وحسابه وعذابه، كما قال عز وجل: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ وكما يقال: قطع الوالي اللصّ أو ضربه، وإنما قطعه أعوانه.

وقد بينا معنى الغمام فيما مضى من كتابنا هذا قبل فأغنى ذلك عن تكريره، لأن معناه ههنا هو معناه هنالك.

فمعنى الكلام إذاً: هل ينظر التاركون الدخول في السلم كافة والمتبعون خطوات الشيطان إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، فيقضي في أمرهم ما هو قاضٍ.

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن إسماعيل بن رافع المديني، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تُوقَفُونَ مَوْقِفاً وَاحِداً يَوْمَ القِيامَةِ مِقْدَارَ سَبْعِينَ عاماً لا يُنْظَرُ إلَيْكُمْ وَلا يُقْضى بَيْنَكُمْ، قَدْ حُصِرَ عَلَيْكُمْ فَتَبْكُونَ حَتى يَنْقَطِعَ الدَّمْعُ، ثُمَّ تَدْمَعُونَ دَماً، وتَبْكُونَ حتَّى يَبْلُغَ ذَلِكَ مِنْكُمُ الأذْقانَ، أوْ يُلْجِمَكُمْ فَتَصيحُونَ، ثمّ تَقُولُونَ: مَنْ يَشْفَعُ لَنا إلى ربّنا فَيَقْضِي بَيْنَنا؟ فَيَقُولُونَ مَنْ أحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أبِيكُمْ آدَمَ؟ جَبَلَ اللَّهُ تُرْبَتَهُ، وَخَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وكَلَّمَهُ قِبَلاً، فَيُؤْتَى آدَمُ، فَيُطْلَبُ ذَلِكَ إلَيْهِ، فَيَأبي، ثمّ يَسْتَقْرِئُونَ الأنْبِياءَ نَبِيًّا نبيًّا، كُلَّما جاءُوا نَبِيًّا أبى»، قال رسول الله ﷺ: «حتّى يأتُوني، فإذَا جاءُونِي خَرَجْتُ حتّى آتي الفَحْصَ»، قال أبو هريرة: يا رسول الله: وما الفَحصُ؟ قال: «فُدَّامُ العَرْشِ، فأخِرُّ ساجِداً، فَلا أزَالُ ساجِداً حتّى يَبْعَثَ اللَّهُ إلَيَّ مَلَكاً، فَيأخُذَ بِعَضُدَيَّ فَيَرْفَعَنِي، ثُمَّ يَقُولَ اللَّهُ لي: يا مُحَمَّدُ فأقُولُ: نَعَمْ وَهُوَ أعْلَمُ، فَيَقُولُ: ما شأنُكَ؟ فأقُولُ: يا رَبّ وَعَدْتَنِي الشَّفاعَة، فَشَفِّعْنِي فِي خَلْقِكَ فاقْض بَيْنَهُمْ

فَيَقُولُ: قَدْ شَفَّعْتُكَ، أنا آتِيكُمْ فأقْضي بَيْنَكُمْ». قال رسول الله ﷺ: «فأنْصَرِفُ حتّى أقِفَ مَعَ النَّاسِ، فَبَيْنا نَحْنُ وُقُوفٌ سَمِعْنا حِسًّا مِنَ السَّماءِ شَديداً، فَهالَنا، فَنَزَلَ أهْلُ السَّماء الدُّنْيا بِمِثْلَيْ مَنْ فِي الأرْضِ مِنَ الجِنّ وَالإنْسِ حتّى إذَا دَنَوْا مِنَ الأرْضِ أشْرَقَتِ الأرْضُ بِنُورِهِمْ، وأخَذُوا مَصَافَّهُمْ، فَقُلْنا لَهُمْ: أفِيكُمْ رَبُّنا؟ قالُوا: لا وَهُوَ آتٍ ثُمّ نَزَلَ أهْلُ السَّماءِ الثّانِيَةِ بِمِثْلَيْ مَنْ نَزَلَ مِنَ المَلائِكَةِ، وَبِمِثْلَيْ مَنْ فِيها مِنَ الجِنّ وَالإنْسِ، حتّى إذَا دَنَوا مِنَ الأرْضِ أشْرَقَتِ الأرْضُ بِنُورِهِمْ، وأخَذُوا مَصَافَّهُمْ، فَقُلْنا لَهُمْ: أفِيكُمْ رَبُّنا؟ قالُوا: لا وَهُوَ آتٍ. ثُمّ نَزَلَ أهْلُ السَّماءِ الثّالِثَةِ بِمِثْلَيْ مَنْ نَزَلَ مِنَ الملائكةِ، وبِمِثْلَيْ مَنْ فِي الأرْضِ مِنَ الجِنّ وَالإنْسِ حتى إذَا دَنَوا مِنَ الأرْضِ أشْرَقَتِ الأرْضُ بِنُورِهِمْ، وأخَذُوا مَصَافَّهُمْ، فَقُلْنا لَهُمْ: أفِيكُمْ رَبُّنا؟ قالُوا: لا وَهُوَ آتٍ، ثُمَّ نَزَلَ أهْلُ السَّمَوَاتِ على عَدَدِ ذَلِكَ مِنَ التَّضْعِيفِ حتّى نَزَلَ الجَبّارُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ وَالمَلائِكَةِ وَلَهُمْ زَجَلٌ مِنْ تَسْبِيحِهِمْ يَقُولُونَ: سُبْحانَ ذي المُلْكِ وَالمَلَكُوتِ، سُبْحانَ رَبِّ العَرْشِ ذِي الجَبَرُوتِ، سُبْحانَ الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ، سُبْحانَ الَّذِي يُمِيتُ الخَلائِقَ وَلا يَمُوتُ، سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ المَلائِكَةِ والرُّوحِ، قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، سُبْحانَ رَبِّنا الأعْلَى، سُبْحانَ ذِي السُّلْطانِ وَالعَظَمَة، سُبْحانَهُ أبَداً أبَداً، فَيَنْزِلُ تَبارَكَ وتَعالى يَحْمِلُ عَرْشَهُ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ، وَهُمُ اليَوْمَ أرْبَعَةٌ، أقْدَامُهُمْ على تُخُومِ الأرْضِ السُّفْلَى وَالسَّمَوَاتُ إلى حُجَزِهِمْ، وَالعَرْشُ على مَناكِبِهِمْ، فَوَضَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَرْشَهُ حَيْثُ شاءَ مِنَ الأرْضِ. ثُمَّ يُنادي مُنادٍ نِدَاءً يُسْمِعُ الخَلائِقَ، فَيَقُولُ: يا مَعْشَرَ الجِنّ وَالإنْسِ إنّي قَدْ أنْصَتُّ مُنْذُ يَوْمَ خَلَقْتُكُمْ إلى يَوْمِكُمْ هَذَا، أسْمَعُ كَلامَكُمْ، وأبْصِر أعْمالَكُمْ، فأنْصِتُوا إلَيَّ، فإنَّما هِيَ صُحُفُكُمْ وأعْمالُكُمْ تُقْرأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غيرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ، فَيَقْضِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بينَ خَلْقِهِ الجِنِّ والإنْسِ وَالبَهائِم، فإنَّهُ لَيُقْتَصُّ يَوْمَئِذٍ لِلْجَمّاءِ مِنْ ذَاتِ القَرْنِ».

وهذا الخبر يدل على خطأ قول قتادة في تأويله قوله: ﴿وَالمَلائِكَةُ﴾ أنه يعني به: الملائكة تأتيهم عند الموت، لأن ﷺ ذكر أنهم يأتونهم بعد قيام الساعة في موقف الحساب حين تشقق السماء.

وبمثل ذلك رُوي الخبر عن جماعة من الصحابة والتابعين كرهنا إطالة الكتاب بذكرهم وذكر ما قالوا في ذلك. ويوضح أيضاً صحة ما اخترنا في قراءة قوله: ﴿وَالمَلائِكَةُ﴾ بالرفع على معنى: وتأتيهم الملائكة، ويبين عن خطأ قراءة من قرأ ذلك بالخفض لأنه أخبر ﷺ أن الملائكة تأتي أهل القيامة في موقفهم حين تفطر السماء قبل أن يأتيهم ربهم في ظلل من الغمام، إلا أن يكون قارىء ذلك ذهب إلى أنه عز وجل عنى بقوله ذلك: إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وفي الملائكة الذين يأتون أهل الموقف حين يأتيهم الله في ظلل من الغمام فيكون ذلك وجهاً من التأويل وإن كان بعيداً من قول أهل العلم ودلالة الكتاب وآثار رسول الله ﷺ الثابتة.

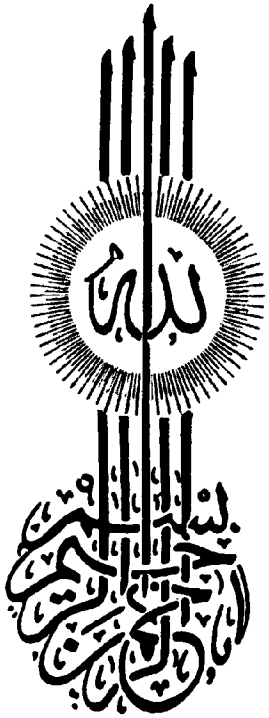

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

تفسير الطبري

تأليف

الأمام الكبير والمحدث الشهير من اطبقت

الأمة على تقدمه في التفاسير

الامام ابي جعفر محمد بن جرير الطبري

الجزء التاسع والعشرون

ضبط وتعليق

محمود شاكر الحرستاني

تصحيح

علي عاشور

دار احياء التراث العربي

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

(٦٧) سورة الملك مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾.

يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿تَبارَكَ﴾: تعاظم وتعالى ﴿الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ﴾ بيده مُلك الدنيا والآخرة وسُلطانهما نافذ فيهما أمره وقضاؤه ﴿وَهُوَ على كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول: وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة لا يمنعه من فعله مانع، ولا يحول بينه وبينه عجز.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الموت والْحَياةَ﴾ فأمات من شاء وما شاء، وأحيا من أراد وما أراد إلى أجل معلوم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً﴾ يقول: ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع. وقد:

حدثني ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَياةَ﴾ قال: أذلّ الله ابن آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ودار فناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة ﴿الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ذكر أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: «إنَّ اللَّهَ أذَلَّ ابْنَ آدَمَ بالمَوْتِ».

وقوله: ﴿وَهُوَ العَزِيزُ﴾ يقول: وهو القويّ الشديد انتقامه ممن عصاه، وخالف أمره ﴿الغَفُورُ﴾ ذنوب من أناب إليه وتاب من ذنوبه.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾.

﴿وَاعِيَةٌ﴾ قال: واعية يحذرون معاصي الله أن يعذّبهم الله عليها، كما عذّب من كان قبلهم تسمعها فتعيها، إنما تعي القلوب ما تسمع الآذان من الخير والشرّ من باب الوعي.

القول في تاويل قوله تعالى:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿فإذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ إسرافيل ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وهي النفخة الأولى، ﴿وحُمِلَتِ الأرْضُ والجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: فزلزلتا زلزلة واحدة.

وكان ابن زيد يقول في ذلك ما:

حدثني به يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿وحُمِلَتِ الأرْضُ والجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ قال: صارت غباراً.

وقيل: ﴿فَدُكَّتا﴾ وقد ذكر قبل الجبال والأرض، وهي جماع، ولم يقل: فدككن، لأنه جعل الجبال كالشيء الواحد، كما قال الشاعر:

هُمَا سَيِّدَانِ يَزْعُمَانِ وإنَّمَا ... يَسُودانِنَا إنْ يَسَّرَتْ غَنَمَاهُمَا[1]

وكما قيل: ﴿أنَّ السَّمَوَاتِ والأرْضَ كانَتا رَتْقاً﴾. ﴿فيومئذٍ وقعت الواقعة﴾ يقول جلّ ثناؤه: فيومئذٍ وقعت الصيحة الساعة، وقامت القيامة.

القول في تاويل قوله تعالى:

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

(١) نسب البيت صاحب «اللسان» (يسر) والعيني في شرح شواهد الألفية إلى أبي أسيدة الدبيري. وأنشد في «اللسان» قبله بيتاً آخر، وهو:

إنَّ لَنَا شَيْخَيْنِ لا يَنْفَعَانِنَا ... غَبِيَّيْنِ لا يُجْدِي عَلَيْنَا غِنَاهُمَا

أي ليس فيهما من السيادة إلا كونهما قد يسرت غنماهما، أي كثرت وكثرت ألبانها ونسلها، والسؤدد يوجب البذل والعطاء والحراسة والحماية وحسن التدبير والحلم، وليس عندهما من ذلك شيء. واستشهد المؤلف بالبيت على أن الشاعر قال: غنماهما بلفظ التثنية للغنم، مع أن الغنم اسم للجمع، وليس بمفرد، ولكنه عامله معاملة المفرد، كما اعتبرت الجبال في قوله تعالى: ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ في حكم المفرد كالأرض، ولذلك قال: فدكتا، ولم يقل فدككن. ا هـ. وفي البيت شاهد آخر عند النحويين في باب إلغاء عمل ظن وأفعال القلوب إذا تأخرت عن معموليهما ولو تقدمت عليهما لعملت فيهما النصب.

يقول تعالى ذكره: وانصدعت السماء ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ يقول: منشقة متصدّعة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقيّ، قال: ثنا أبو أسامة، عن الأجلح، قال: سمعت الضحاك بن مزاحم، قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا بأهلها، ونزل من فيها من الملائكة، فأحاطوا بالأرض ومن عليها، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، فصفوا صفاً دون صفّ ثم نزل الملك الأعلى على مجنّبته اليسرى جهنم، فإذا رآها أهل الأرض ندّوا، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قول الله: ﴿إنِّي أخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ﴾ وذلك قوله: ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾، وقوله: ﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنْسِ إنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنْفُذُوا مِنْ أقْطارِ السَّمَواتِ والأرْضِ فانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إلاَّ بِسُلْطانٍ﴾ وذلك قوله: ﴿وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالمَلَكُ على أرْجائِها﴾.

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ يعني: متمزّقة ضعيفة.

﴿والملكُ على أرجائها﴾ يقول تعالى ذكره: والملك على أطراف السماء حين تشقق وحافاتها. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله: ﴿والمَلَكُ على أرْجائها﴾ يقول: والملك على حافات السماء حين تشقّق ويقال: على شقة، كلّ شيء تشقّق عنه.

حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء، جميعاً عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قوله: ﴿وَالمَلَكُ على أرْجائها﴾ قال: أطرافها.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يعقوب، عن جعفر، عن سعيد، في قوله: ﴿وَالمَلَكُ على أرْجائها﴾ قال: على حافات السماء.

حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي، قال: ثنا أبو أُسامة، عن الأجلح، قال: قلت للضحاك: ما أرجاؤها، قال: حافاتها.